الفتـــوة

فى التاريخ الاسلامى وكتب اللغة

للأستاذ ضياء الدخيلى

فى العدد (٧٧٨) من مجلة الرسالة الغراء يقول الأستاذ محمود رزق سليم : (وقال ابن الوردى فى لاميته المشهورة .

واهجر الخمرة إن كنت (فتى) كيف يسمى فى جنون من عقل

وشاهدنا فى عبارة (إن كنت فتى) وهى ترادف الاستعمال الشائع الآن وهو (إن كنت جدع) أى إن كنت شهما . وبدهى إن معنى فتى لا يفيد لغة معنى شهم) وقد دفعتنى كلمة الكاتب الفاضل إلى تحقيق معنى فتى وفتوة ، إذ قد أصبح لكلمة الفتوة فى العراق أهمية خاصة ، وقد تردد صداها فى تاريخنا السياسى والحربى القريب بعد أن جعلها مسيرو وزارة العارف اسماً لنظام تربوى يستهدف بعث جيل قوى فى جسمه ومبادئه يدربونه على الحياة العسكرية ويعلمونه الرماية واستعمال الأسلحة الخفيفة . وعاد إسم الفتوة مرادفاً للفروسية والشهامة والنبل والعزة القومية ؛ غير أنى أجد من الغريب إدعاء بعض الأدباء وعلماء اللغة أن استعمال كلمة (الفتى) بمعنى الرجل الشهم النبيل المتحلى بفضائل الرجولة — هو استعمال مولد ؛ وهذا هو طرفة بن العبد يقول فى معلقته إذا القوم قالوا من (فتى) خلت أننى

عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

قال الزوزنى فى (شرح المعلقات) يقول : إذا القوم قالوا من فتى يكفى مهماً أو يدفع شراً خلت أننى المراد بقولهم فلم أكسل فى كفاية المهم ودفع الشر ولم أتبلد (أى أتردد متحيراً) فيهما . وعنيت من قولهم عنى يعنى عنيا بمعنى أراد وقال طرفة .

على موطن يخشى (الفتى) هذه الردى

متى تعترك فيه الفرائص ترعـــد

قال الزوزنى يقول حبست نفسى فى موضع من الحرب يخشى الكريم هناك الهلاك ، ومتى تعترك الفرائص فيه أرعدت من فرط الفزع وهول المقام . وقال أيضاً فيها .

ولولا ثلاثهن من عيشة (الفتى)

وجـــدك لم أحفل متى قام عودى

فمنهن سبق العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد

وكرى إذا نادى المضاف مجنباً كسيد الغضا نبهته المتورد

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب

ببهكنة تحت الخبـــاء المعمـــد

قال الشارح يقول فلولا حبى ثلاث خصال هن من لذة الفتى الكريم لم أبال متى قام عودى من عندى أبسين من حياتى ؛ فالأولى مبادرتى شرب الخمر قبل انتباه العواذل ، والثانية عطفى إذا نادانى الملجأ إلى والخائف عدوه مستغيثاً إياى — فرساً فى يده انحناء يسرع فى عدوه إسراع ذئب يسكن فيما بين الغضا إذا نبهته وهو يريد الماء ؛ فجعل الخصلة الثانية إغاثته المستغيث وإغاثته اللاجئ إليه ؛ أما الثالثة أنه يقصر يوم الغيم بالتمتع بامرأة ناعمة حسنة الخلق تحت بيت مرفوع بالعمد — وهذه مثله العليا التى تحتها قصور تفكيره . والغرض أنه ضمن الفتوة إغاثة الملهوف وتلك هى الشهامة ، وقد اعتبرها من الخصال الداخلة فى مكونات الفتوة . ولنشرح غريب الأبيات فنقول (الجد الحظ والبخت . خمرة كميت اللون ضاربة إلى السواد والحمرة قال المتنبى .

إذا أردت كميت اللون صافية وجدتها وحبيب النفس مفقود

وكرّه فرسه عطفه لها ، والمضاف الخائف والمذعور . المجنب الفرس فى يده انحناء . السّيد الذئب . الغضا شجر . المتورد يرد الماء . الدجن إلباس الغيم آفاق السماء . البهكنة المرأة الحسنة الخلق السمينة الناعمة ، المعمد المرفوع بالعمد) .

وقال المتنبى .

فلما أنخنا ركزنا الرماح بين مكارمنا والعلى

وبتنا نقبل أســـيافنا ونمسحها من دماء العدى

لنعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أنى (الفتى)

وإنى وفيت وإنى أبيت وإنى عتوت على من عتا

وما كل من قال قولا وفى ولا كل من سيم خسفا أبى

قال الشارح لديوانه (أنخنا نزلنا . العواصم اسم بلاد . والفتى الحر الكريم . أبيت أمتنعت ، وعتوت تجبرت . سام كلف ، والخسف الذل ، وأبى امتنع) — وبعد فها إنك ترى المتنبى قد استعمل كلمة

الفتى فيما يدل على كمال الرجولة والإنسانية الرفيعة ويتضمن الشهامة والإباء وعزة النفس وإليك أيضاً قول الشاعر .

إن (الفتى) من يقول ها أناذا ليس (الفتى) من يقول كان أبي

ولم يغفل علماء اللغة هذا المعنى وإن لم يوفوه بياناً وإيضاحاً . قال الجوهرى فى (الصحاح) والفتى السخى الكريم ، يقال هو فتى بين الفتوة . وقد تفتى وتفاتى ، وقد تناقل المؤلفون كلمة الجوهرى من دون تمحيص أو تحقيق وهذا من عيوب كتب اللغة ، فكأنها لتشابه ما فيها — كتاب واحد فلم يكلفوا أنفسهم جهد مراجعة الشواهد للتصرف فى التعبير والتبيان ؛ فقال الفيروزابادى فى (القاموس) الفتى الشاب والسخى الكريم ؛ والفتوة الكرم . وقد تفتى وتفاتى ، وفتوتهم غلبتهم فيها . وقال البستانى فى (البستان) : الفتى الشاب الحدث والسخى ، والفتوة السخاء والكرم والمروءة . وقال فى (أقرب الوارد) الفتى الشاب الحدث والسخى الكريم ، والفتوة السخاء والكرم والمروءة . وقال فى (فرائد اللغة) الفتى الشاب الحدث والسخى الكريم . وقال فى (المنجد) الفتى الشاب الحدث السخى الكريم . (فتايفتو فتواً) الرجل : غلبه فى الفتوة أى السخاء والكرم . وها أنت ترى اللغويين هؤلاء قد تعلقوا بأذيال الكرم والسخاء هذه الفضيلة ذات القيمة الغالية فى حياة الصحراء العربية الجدبة ؛ ولكنك تفهم من سياق أبيات المتنبي وطرفة بن العبد معانى بعيدة عما يحوم حوله علماء اللغة ، فإنك تحس أنها يريدان بالفتوة الشهامة والفروسية والرجولة وما يقارب ذلك من مظاهر القوة والصبر على المكاره والشدة وصلابة العود والنجدة ؛ وإذن فإننا نكاد نتهم أصحاب المعاجم اللغوية فى شرحهم لمعانى الكلمات . وقال فى (محيط المحيط) الفتى الشاب الحدث والسخى الكريم ، والفتوة السخاء والكرم والمروءة وعند أهل الحقيقة هى أن تؤثر الخلق على نفسك بالدنيا والآخرة . وعند السالكين كف الأذى وبذل الندى وترك الشكوى . وإنى أرى أن هذا هو المفهوم لغة من النصوص المتقدمة الذكر . وقال الزمخشرى فى (أساس البلاغة) هذا فتى بين الفتوة وهى الحربة والكرم . قال عبد الرحمن بن حسان .

إن الفتى لفتى المكارم والعلى ليس الفتى بمملج الصبيان

وقال آخر :

يا عزهل لك فى شيخ (فتى) أبداً وقد يكون شباب غير فتيان

(الغملج هو الذى لا يثبت على حالة ، يكون مرة سخيا ومرة بخيلا ومرة شجاعاً وأخرى جباناً ومرة شاطراً وأخرى قارتا أى جامداً ساكتا : كذا فى القاموس) .

ولكن ابن منظور الأفريقى ينقل فى (لسان العرب) عن القتيبى إنه ليس الفتى بمعنى الشاب والحدث إنما هو بمعنى الكامل الجزل من الرجال يدلك على ذلك قول الشاعر .

إن (الفتى) حمال كل ملمة ليس الفتى بمنعم الشبان

وقال ابن هرمة :

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه خلق وجيب قميصه مرقوع

ونقل عن ابن برى أن الفتى هو الكريم .

غير أن شارح (القاموس) يقول فى كتابه (تاج العروس) والفتوة الكرم والسخاء ، هذا لغة ؛ وفى عرف أهل التحقيق أن يؤثر الخلق على نفسه بالدنيا والآخرة . وصاحب الفتوة يقال له الفتى ومنه لا فتى إلا على وقول الشاعر .

فإن (فتى الفتيان) من راح واغتدى

لضر عـــدو أو لنفع صـــديق

وعبر عنها فى الشريعة بمكارم الأخلاق . قال ولم يجىء لفظ الفتوة فى الكتاب والسنة وإنما جاء فى كلام السلف . وأقدم من تكلم فيها جعفر الصادق ثم الفضيل ثم الإمام أحمد وسهل والجنيد ، ولهم فى التعبير عنها ألفاظ مختلفة والمآل واحد . ويقال هو فتى بين الفتوة وقد تفتى وتفاتى نقله الجوهرى ، وفتوتهم أفتوهم غلبتهم فيها أى (الفتوة) . وبعد فها أنت تجد صاحب تاج العروس يعزو الفتوة إلى الأمام جعفر الصادق وقد كان فى صدر الدولة العباسية وإليه أيضاً ينسب علم الكيمياء . وقد وجدت فى (مجمع البحرين) للطريحى (والفتى أيضاً السخى الكريم وفى الحديث تذاكرنا عند الصادق أمر الفتوة فقال أتظنون أن الفتوة بالفسق والفجور ؟ إنما الفتوة والمروءة طعام موضوع ، ونائل مبذول ، إلى أن قال وأما تلك فشطارة الخ) والشطارة الخبث ، والشاطر هو الذى أعيا أهله خبثا . وقد مدح الغزالى الفتوة فى إحياء العلوم وذكر بعض

المؤرخين أنه كان في أسيا الصغرى جمعيات أخوية تتبع نظام الفتوة وتكرم الغرباء وتساعد الفقراء ولها زوايا وألبسة وتقاليد خاصة ، وإنها من تقاليد المسلمين القديمة النافعة التي أضعناها ؛ فلو أننا احتفظنا بها مع تحسينها لكانت لنا خيراً من الكشافة

وذكرت الفتوة في (دائرة معارف الإسلام) وقالوا إن للفتوة مبادىء أخلاقية سامية منها تضحية النزعات الفردية في سبيل الصالح العام .

وذكر أحد مؤرخي الحضارة الإسلامية أن الفتوة كانت في العصر العباسي نظاماً له صبغة دينية . ومن صفات الفتيان الشجاعة والكرم ومساعدة الغير وللفتوة نظام خاص وألبسة خاصة ولباس الفتوة الخاص سراويل عليها صورة كأس ؛ فإذا أراد أحد الانخراط في هذا السلك تقام له حفلة يشهدها إخوانه الفتيان ويلبس سراويل الفتوة ويشرب كأس الفتوة . وكانوا يرمون البندق وهو كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها ؛ وكانوا يرمون البندق عن الأقواس كما يرمون النبال . وكان رماة البندق في العصر العباسي طائفة كبيرة يخرجون إلى ضواحي المدن ويتسابقون في رميه على الطير ، ويعدون ذلك من الفتوة . وفي خلافة الناصر لدين الله العباسي المتوفى سنة ٦٢٧ هـ أقبل الناس على رمي البندق وتربية الحمام لأن الخليفة نفسه كان كبير فتيان زمانه ، ورغب في هذين الفنين . وقد بلغ من رغبته في ذلك أن جعل رمي البندق فناً لا يتعاطاه إلا الذين يشربون كأس الفتوة ويلبسون سراويلها على أن يكون بينهم روابط وثيقة على نحو ما عند بعض الجمعيات السرية . ثم تفننوا في رمي البندق بالمزاريق أو الأنابيب بضغط الهواء من مؤخر الأنبوب بما يشبه أنابيب البنادق ، فلما اخترعوا البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الأنابيب وسموا هذه الآلة بندقية نسبة إليه) .

ضياء الدين الريس

اطلب كتاب

تولستوى

خواطر مسجورة :

تمثال شاعر

إلى المفتونين الذين اضطربت حياتهم . وتعثرت خطواتهم.
إلى المغمورين الذين منهم الضيم وهم أباة ، وسيموا الهوان وهم كرام] .

كأني بالشاعر وقد عاش تسعين عاماً ، بين عيون تعامى ... فلم ينقذه من حياة الأموات ، سوى مهم الممات !

عاش سطراً في دفتر القضاء ، وسراً في ضمير الفناء . ومات فلم يخسر شيئاً من الدنيا ، لأنه لم يكن قبل الموت حياً !!

عاش فأنكروه ، ولم يذكروه . ومات فتباكى الجاحد ، وتحازن الحاسد ... !

عاش يبحث عن الضالة المنشودة ، والرحمة المفقودة ، حتى ذوى يأساً ، وقضى بؤساً ... !

عاش هدفاً لإجحاف مر ، واعتساف مستمر ... ومات فهشوا لوفاته ، وبالغوا في تكريم رفاته !

فقد الرحمة حياً ثم مات ، فطلبوا له غيثاً من الرحمات ! فهل كانت الرحمة للميت لزاماً ، وعلى الحي حراماً ؟ ! أم هو الفضل يذكر إن صاحبه ذهب ، والجحود يزول بزوال السبب . فمن لم يستطع التحديق في الشمس كان للتعامي مؤزراً ، فإذا غربت انقلب مبصراً ، فأكبر الدفين في الرمس ، وعرف له اليوم عالم يعرفه بالأمس . ورب متجاهل كان تجاهله جهلا ، ومتعام كان للعمى أهلا .

وكأني بالشاعر وقد شيعوه إلى القبر ، ملتمسين لذويه الصبر ! وبعد تراب عليه أنهال ، أقيم له تمثال .

وإذا العيون قفلت ، والقلوب غفلت ، فإن التمثال لا يلفت ذوى عمى ، ولا يوقظ من ينظرون إليه نظر الأطفال إلى الدمى !

وإذا قضى الشاعر نحبه ، وفارق آله وصحبه ، فإن التمثال لا ينفع من ذهب ، وإن كان من ذهب !

فلعمري إن لم يظفر الحي بأمنيته ، قبل منيته ، فإن الذكر والنسيان ، في الموت يستويان !

ليتهم صانوا صاحب التمثال حياً ، فمن مات مذكوراً هو من عاش منسياً !!

عامر بدر